زعيم الأمة

مصطفى كامل

أسامة عبد الرحمن

مقدمة

التاريخ هو الذي يصنع الضمير الوطني والقومي للأمة, لذلك درجت الأمم

علي العناية بتاريخها, والتنقيب فيه باستمرار, واستجلاء ما غمض منه لكي تتعرف علي ذاتها وتستكشف شخصيتها, وتعرف ما أسهمت به في الحضارة البشرية وتتبين حجمها بين الأمم.

والتاريخ هو ذاكرة البشرية, وهو وسيلتها لفهم الحاضر والاستعداد للمستقبل وشعب بلا تاريخ هو كإنسان بلا ذاكرة, لا يستطيع ممارسة خبراته أو

التعرف علي قدراته, أو مواجهة حاضرة, أو التعامل مع مستقبله, ومن هنا فمعرفة التاريخ شرط أساسي لفهم الحاضر وبناء المستقبل.

بعد سيطرة الانجليز علي كل موارد مصر ظلوا لمدة ١٠ سنوات أمام العالم يقنعون العالم أنهم يحتلوا مصر احتلال مؤقت وليس دائم لذلك لم يكن هناك صوت واحد معارض أو مقاوم للانجليز.

وجاء مصطفى كامل موضوع حديثنا وهو يحتل في تاريخ مصر وفي تاريخ حركتها الوطنية موقعاً مرموقاً فهو أحد الأبطال التاريخيين الذين نهضوا بمصر بعد فشل ثورة عرابي واحتلال الإنجليز لمصر، وأسّسوا لحركة وطنية رفعت منذ البداية شعار التحرر مرفقاً بشعار جلاء القوات الإنجليزية عن مصر أهمية تلك النهضة .

التي كان مصطفى كامل أحد أبطالها أنّها جاءت في زمن الخيبة التي تولّدت من الحدثين المشار إليهما، فشل ثورة عرابي واحتلال الإنجليز لمصر. وأجدني مسوقاً للاستشهاد بفقرتين من مقدّمة عبد الرحمن الرافعي للكتاب الذي كرّسه لمصطفى كامل، تعبِّران بوضوح عن تلك الحقبة وصعوباتها وعن دور مصطفى كامل في نضاله المبكر للخروج منها إلى الحرية يقول الرافعي: وطنيّة مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذي ظهر فيه، وأقوى من العوامل المثبطة فأخذ يثابر على دعوته، ويناضل عنها، حتى استجابت الأُمّة لندائه فكانت نهضة، وكانت حياة، وكان شعور، وكان جهاد وإذا كانت الدعوة الوطنية التي دعا إليها وناضل من أجلها قد صارت بعد ثمانية عشر عاماً من جهاده طبيعية محبَّبة إلى النفوس، فإنّ الطريق إليها كان شائكاً والروح التي بعثها مصطفى كامل في الأُمّة هي التي مهّدت السبيل لثورة سنة ١٩١٩.

أسامة عبد الرحمن

الباب الأول

من هو ؟

مصطفى كامل باشا:

(١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ ـ ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨) زعيم سياسي وكاتب مصري أسس الحزب الوطني وجريدة اللواء كان من المنادين بإنشاء (إعادة إنشاء) الجامعة الإسلامية وكان من أكبر المناهضين للاحتلال وعرف بدوره الكبير في مجالات النهضة مثل نشر التعليم وإنشاء الجامعة الوطنية، وكان حزبه ينادي برابطة أوثق بالدولة العثمانية، أدت جهوده في فضح جرائم الاحتلال والتنديد بها في المحافل الدولية خاصة بعد مذبحة دنشواي التي أدت إلى سقوط اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر.

نشأته:

ولد مصطفى كامل في ١ رجب عام ١٢٩١ هـ الموافق ١٤ أغسطس عام١٨٧٤م، في قرية كتامة التابعة لمركز بسيون بمحافظة الغربية وكان أبوه علي محمد من ضباط الجيش المصري، وقد رُزِقَ بابنه مصطفى وهو في الستين من عمره، وعُرِف عن الابن النابه حبُّه للنضال والحرية منذ صغره؛ وهو الأمر الذي كان مفتاح شخصيته وصاحبه على مدى ٣٤ عاماً.

والمعروف عنه أنه تلقى تعليمه الابتدائي في ثلاث مدارس، أما التعليم الثانوي فقد التحق بالمدرسة الخديوية، أفضل مدارس مصر آنذاك، والوحيدة أيضاً، ولم يترك مدرسة من المدارس إلا بعد صدام لم يمتلك فيه من السلاح إلا ثقته بنفسه وإيمانه بحقه.

وفي المدرسة الخديوية أسس جماعة أدبية وطنية كان يخطب من خلالها في زملائه، وحصل على الثانوية وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم التحق بمدرسة الحقوق سنة ١٣٠٩ هـ = ١٨٩١م، التي كانت تعد مدرسة الكتابة والخطابة في عصره، فأتقن اللغة الفرنسية، والتحق بجمعيتين وطنيتين، وأصبح يتنقل بين عدد من الجمعيات؛ وهو ما أدى إلى صقل وطنيته وقدراته الخطابية.

وقد استطاع أن يتعرف على عدد من الشخصيات الوطنية والأدبية، منهم: إسماعيل صبري الشاعر الكبير ووكيل وزارة العدل، والشاعر الكبير خليل مطران، وبشارة تقلا مؤسس جريدة الأهرام، الذي نشر له بعض مقالاته في جريدته اللواء.

في سنة ١٣١١ هـ = ١٨٩٣م ترك مصطفى كامل مصر ليلتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية؛ ليكمل بقية سنوات دراسته، ثم التحق بعد عام بكلية حقوق تولوز، واستطاع أن يحصل منها على شهادة الحقوق، وألف في تلك الفترة مسرحية فتح الأندلس التي تعتبر أول مسرحية مصرية، وبعد عودته إلى مصر سطع نجمه في سماء الصحافة، واستطاع أن يتعرف على بعض رجال وسيدات الثقافة والفكر في فرنسا، ومن أبرزهم جولييت آدم، وازدادت شهرته مع هجوم الصحافة البريطانية عليه .

كان لمصطفى كامل ستة إخوة وأختان اثنتان وكان، طيّب الله ثراه، جريئاً فى الحق منذ صغره لا يهاب، حتى لقد كان يذهب لمقابلة على مبارك وزير المعارف العمومية فى ذلك الحين يعرض عليه مطالبه هو وزملائه منافحاً عن رأيه بكل شجاعة، مما كان يعجب الوزير ويدفعه إلى الثناء عليه أمام الحاضرين من رجال الدولة رغم مخالفته إياه فى الرأى.

وقد أسس، وهو طالب فى المدرسة الثانوية، جمعية أدبية وطنية كان يخطب فيها، فضلاً عن كتابته المقالات الصحفية، فى الوقت الذى كان اليأس مخيماً على النفوس، حتى إن بعض الكبراء من رجال البلاد باعوا ضمائرهم للمحتلين وساروا فى ركابهم إلا أن مصطفى كامل لم يأبه بالاحتلال ولا بالمؤامرات التى كان يدبرها الإنجليز ضده هو وأخيه على فهمى الضابط بالجيش المصرى، فصَدَع بصوته المجلجل أسداف الظلام والخوف والإحباط يرفده إيمانٌ بالله لا يتزعزع وحبٌّ للوطن راسخ كالأطواد وعزةُ نفسٍ تأبى الهوان ورغبةٌ فى نهضة البلاد تلتهب ولا تعرف الخمود، وانطلق يخطب ويكتب المقالات فى مصر وفى بلاد أوروبا بالعربية والفرنسية يستنهض الهمم ويتغنى بحبه الجارف للوطن ويحمل على الاحتلال ورجاله وعلى كبار الساسة الإنجليز حتى فى عقر دارهم مُفَنِّداً شبهاتهم التى يتذرعون بها للبقاء فى مصر، ومُسَخِّفًا دعاواهم الباطلة التى يزعمون فيها تعصب المصريين ضد الجنسيات والأديان الأخرى.

ولقد كان ، ذا صوت مجلجل عميق يُسْمِع الآلاف المحتشدين لخطبته، فى الوقت الذى لم تكن مكبرات الصوت قد عُرِفَتْ بعد، وذلك رغم نحول عوده وضعف صحته وكانت روحه المتأججة تُعْدِى جماهير مستمعيه وتلهب فيهم أحاسيس العزة والكرامة وكان يخطب بنفس القوة والكفاءة بالعربية والفرنسية وقد أثنى على مقدرته الخطابية ثناء عظيماً كل من قُيِّض له أن يستمع له من المصريين والأجانب على السواء، ومنهم الصحفيون الإنجليز أنفسهم وكثيراً ما كان جمهور المستمعين يقدم له وهو يخطب باقات الورود تعبيراً عن حبهم له وإعجابهم به وإجلالهم إياه كما كانت خطبه تستمر أحيانا أكثر من ساعة ونصف بنفس الحماسة والتأجج والإخلاص.

ويؤسفنى أن أقرر هنا أن محمد عبده كان يسخر من خطب هذا الزعيم الوطنى الجليل قائلاً إنها مجموع نوبات عصبية بعضها شديد، وبعضها خفيف والحق أن هذا تجنٍّ فاحش لا معنى له، وإلا فما الذى كان الشيخ يريد من مصطفى كامل أن يصنع؟ هل كان يريد منه أن يخرس فلا يهاجم الإنجليز ولايعمل على إيقاظ الروح الوطنية المحبَطة؟ أم هل كان يريد منه أن يربِّت بحنان ورفق على أكتاف الإنجليز؟ أم هل كان يريد منه أن يختلف مثله إلى مجالس كرومر؟ ألا إن هذا لموقف غير مفهوم أبداً من محمد عبده أيًّا كانت الأسباب التى حملته على ذلك.

الباب الثانى

جهاده ضد الاحتلال

كان مصطفى كامل فى بداية أمره يمد يده بالتعاون إلى الخديوى عباس حلمى، إذ كانت سياستهما متفقة فى ذلك الوقت، لكن حين افترقت طريقاهما بضغط من الأحداث والظروف على عزيز مصر ظل زعيمنا ثابتاً على مبادئه لا يتحول عنها وبالمثل كان يحاول الاستفادة من العداء التقليدى بين الإنجليز والفرنسيين والاستعانة بالأخيرين فى كفاحه ضد الاحتلال البريطانى إلا أنه، بعد أن ظهرت فرنسا على حقيقتها فى أكثر من موقف واتفقت مع إنجلترا على أن تغض كلتاهما الطرْف عما تفعله الأخرى فى مستعمراتها، ولَّى ظهره هذه الجبهة وجعل اعتماده على الله وحده دون أدنى فتور فى مشاعره الوطنية أو فى كفاحه ضد المحتلين الغاصبين، وهو ما يدل على قوة إيمانه بربه وحبه لوطنه واعتزازه بذاته وثقته بعمله وبمستقبل بلده، وكذلك دون مبالاة بصحته التى كانت تتدهور مع الأيام أو بنصائح أطبائه له بالإخلاد للراحة، إذ كان شعوره الوطنى لا يتركه يهدأ لحظة، إلى أن مات فى شبابه وهو فى الرابعة والثلاثين، وإن كان قد أنجز من جلائل الأعمال فى عمره القصير ما لا يستطيع غيره تحقيقه فى أضعاف هذا الزمن.

كان الزعيم من أكبر المناهضين للاستعمار، ومن أكبر من نادوا بالنهضة وأهمية التعليم، وفضح جرائم الاحتلال والتنديد بها فى المحافل الدولية خاصة بعد مذبحة دنشواى، إلى سقوط اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر.

بدء مسيرة النضال:

عاد مصطفى كامل إلى مصر ليلعب دوراً مهماً ميدانياً وخطابياً وصحفياً في الاكتتاب لتأسيس جامعة مصرية هى جامعة القاهرة، بعد أن ذاع صيته، وألف فى تلك الفترة مسرحية فتح الأندلس، التى تعتبر أول مسرحية مصرية ودعا بعدها في أوروبا لنصرة القضية المصرية ودعمته في ذلك دعائياً الصحفية الفرنسية، المعروفة آنذاك جولييت، ليصدر في عام ١٩٠٠ جريدة اللواء اليومية.

وسائل مصطفى كامل في مقاومة الإستعمار:

لقد كانت عقيدة مصطفى كامل بسيطة في مبائدها إذا انها تقوم على الحب الخالص للوطن ، لا يشوبه التفكير في إنتفاع أو مصلحة شخصية . فكان يستخدم في حملته ثلاثة وسائل .

الوسيلة الأولى : ألا يأس مطلقاً ألا تصدقوا أيها المصريين كلام الإنجليز وكلام مأجوريهم بأن مركزهم في مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع .

الوسيلة الثانية : لا تثقوا مطلقاً بوعودهم و لا تركنوا إلى محاولتهم في تبسيط مركز البلاد الدولي ، بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية و العثمانية التي يكرهها الإنجليز .

الوسيلة الثالثة : لا تصدقوا أن الإحتلال يمكن أن يبطن خيراً لكم أو لبعضكم ، هو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم و يجعل من بعضكم أعداء البعض الآخر .

وقد كان هذا هو ما يفرق بين عباس و مصطفى كامل ، فبينما مصطفى كامل كان يتحالف مع كل القوى المعادية للإحتلال مثل فرنسا والجامعة الإسلامية والخديوية بقصد تصفية الإحتلال ، كان عباس يستخدم من تحالفه مع نفس القوى وسيلة للضغط على السياسة البريطانية لطرح اسلوب كرومر في الحكم .

تولى الزعيم مصطفى كامل قيادة الحركة الوطنية في أواخر القرن التاسع عشر وتمثلت تحركات مصطفى كامل في اتجاهين :

داخليا:

١-الدعوة إلى الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط.

٢-المطالبة بالدستور باعتباره أداة الحكم الصالح في مصر.

٣-الاهتمام بالدعوة إلى نشر التعليم وإنشاء الجامعة المصرية (جامعة القاهرة حالياً).

٤-تأسيس الحزب الوطني ١٩٠٧م بمبادئه التي تتمثل في الجلاء والدستور.

٥-تأسيس :جريدة اللواء ١٩٠٠ بالعربية والفرنسية.

خارجيا:

١-إقناع أوروبا وخاصة فرنسا بحق مصر في الاستقلال.

٢-الاعتماد على الدولة العثمانية باعتبارها صاحبة السيادة الشرعية على مصر لتساعدها على الاستقلال.

٣-استغلال حادثة دنشواي للتنديد بالاحتلال البريطاني وسياسته القمعية.

٤-الدعوة إلى رفض اتفاقية الحكم الثنائي في السودان ١٩ يناير ١٨٩٩م.

d ظل يعتمد على فرنسا إلى أن تم توقيع الاتفاق الودي ١٩٠٤م بين انجلترا وفرنسا.

الاتفاق الودى: انفراد انجلترا بمصر مقابل انفراد فرنسا بمراكش (المغرب).

النتائج التي ترتبت على جهود مصطفى كامل:

١-استقالة اللورد كرومر أول وأقوى معتمد بريطاني في مصر.

٢-اهتمام الصحف العالمية بالقضية المصرية.

٣-إعلان مصطفى كامل رسميا تأسيس الحزب الوطني ١٩٠٧م.

الباب الثالث

أهم أعمال الزعيم مصطفى كامل

- أسس وهو في المدرسة الخديوية جماعة أدبية وطنية كان يخطب من خلالها في زملائه.
- استطاع أن يقيم علاقات قوية مع عدد من الشخصيات الوطنية والأدبية، منهم: إسماعيل صبري الشاعر الكبير ووكيل وزارة العدل، والشاعر الكبير خليل مطران، وبشارة تكلا مؤسس جريدة الأهرام، الذي نشر له بعض مقالاته في جريدته، ثم نشر مقالات في جريدة المؤيد.
- تعرف علي جوليت آدمز في فرنسا التي كانت تمتلك صالون ثقافي وأقام فيه علاقة قوية جدا برجال الفكر والسياسة في فرنسا.
- ألف أول مسرحية مصرية سياسية وهى مسرحية فتح الأندلس ، وبعد عودته إلى مصر سطع نجمه في سماء الصحافة.
- استطاع أن يتعرف على بعض رجال الثقافة والفكر في فرنسا، وازدادت شهرته مع هجوم الصحافة البريطانية عليه.
- سعي مصطفى كامل في إنشاء الجامعة المصرية.

علم الزعيم مصطفى باشا كامل في أثناء وجوده ببريطانيا للدفاع عن القضية المصرية والتنديد بوحشية الإنجليز بعد مذبحة دنشواي، أن لجنة تأسست في مصر للقيام باكتتاب عام لدعوته إلى حفل كبير وإهدائه هدية قيمة؛ احتفاءً به وإعلانًا عن تقدير المصريين لدوره في خدمة البلاد، فلما أحيط علما بما تقوم به هذه اللجنة التي كان يتولى أمرها محمد فريد

رفض الفكرة على اعتبار أن ما يقوم به من عمل إنما هو واجب وطني لا يصح أن يكافأ عليه، وخير من ذلك أن تقوم هذه اللجنة بدعوة الأمة كلها، وطرق باب كل مصري لتأسيس جامعة أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وأن كل قرش يزيد عن حاجة المصري ولا ينفقه في سبيل التعليم هو ضائع سدى، والأمة محرومة منه بغير حق.

أرسل إلى الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد برسالة يدعو فيها إلى فتح باب التبرع للمشروع، وأعلن مبادرته إلى الاكتتاب بخمسمائة جنيه لمشروع إنشاء هذه الجامعة، وكان هذا المبلغ كبيرًا في تلك الأيام؛ فنشرت الجريدة رسالة الزعيم الكبير في عددها الصادر بتاريخ (١١ شعبان١٣٢٤ هـ= ٣٠ سبتمبر١٩٠٦م).

ولم تكد جريدة المؤيد تنشر رسالة مصطفى كامل حتى توالت خطابات التأييد للمشروع من جانب أعيان الدولة، وسارع بعض الكبراء وأهل الرأي بالاكتتاب والتبرع، ونشرت الجريدة قائمة بأسماء المتبرعين، وكان في مقدمتهم حسن بك جمجوم الذي تبرع بألف جنيه، وسعد زغلول وقاسم أمين المستشاران بمحكمة الاستئناف الأهلية، وتبرع كل منهما بمائة جنيه.

غير أن عملية الاكتتاب لم تكن منظمة، فاقترحت المؤيد على مصطفى كامل أن ينظم المشروع، وتقوم لجنة لهذا الغرض تتولى أمره وتشرف عليه من المكتتبين في المشروع، فراقت الفكرة لدى مصطفى كامل.

ودعا المكتتبين للاجتماع لبحث هذا الشأن، واختيار اللجنة الأساسية، وانتخاب رئيس لها من كبار المصريين من ذوي الكلمة المسموعة حتى يضمن للمشروع أسباب النجاح والاستقرار.

أتمت لجنة الاكتتاب عملها ونجحت في إنشاء الجامعة المصرية ويرأسها الملك فؤاد الأول آنذاك.

قرر توطيد علاقته مع فرنسا لأنه درس ٤ سنوات في فرنسا واتصل بكبار رجال السياسة في فرنسا وأقنع العالم كله إن مصر غير موافقة علي الاحتلال البريطاني وأنها كارهة له .

لكن فرنسا كأي دولة استعمارية تضع مصالحها فوق كل اعتبار وهذا حدث في حادثة عام ١٨٩٨م في فاشودة في السودان , تقاسمت كل من فرنسا وايطاليا وانجلترا السودان فيما بينهم ففكرت فرنسا فى احتلال فاشودة بـ ٩ ضباط فرنسيين و١٢ جندي سنغالي واستغرقت من غرب أفريقيا للسودان سنتين ورفع العلم الفرنسي في فاشودة ووقفت انجلترا لفرنسا حيث اعترضوا علي الاعتداء علي أملاك الخديوي وأملاك مصر فارسلت حملة مصرية من ١٨٠٠ جندي مصري انتهت برفع العلم المصري في فاشودة عام ١٨٩٨م.

لم يحدث صدام بين انجلترا وفرنسا وآثرت فرنسا السلامة ففي عام ١٨٩٩م عقدت اتفاقية الشراكة بين انجلترا وفرنسا علي فاشودة وانسحبت فرنسا منها.

الحادثة الثانية هي الوفاق الودي ١٩٠٤م فبعد حادثة فاشودة كانت هناك علاقة جفاء بين انجلترا وفرنسا ولكن بعد ظهور ألمانيا كقوة عظمي وتحالفها مع النمسا وايطاليا تحالفت كل من انجلترا وفرنسا وروسيا حيث قام ادوارد السابع ملك انجلترا بزيارة لفرنسا وتم توقيع الاتفاق الودي وفي مادته الأولي : أن انجلترا ليس في نيتها فصل العلاقة بين مصر والسلطان العثماني وأن فرنسا لن تعرقل وجود انجلترا في مصر وانجلترا لن تعرقل وجود فرنسا وعملها في مراكش بعد الحادثتين فقد مصطفي كامل الأمل في الحصول علي أي مساعدة من فرنسا.

في عام ١٩٠٦م حدثت حادثة دنشواي فاستغلها مصطفي كامل أحسن استغلال فى عرض وحشية الانجليز أمام العالم حيث أستغل فرصة وجوده في فرنسا وأعلن للعالم المعاملة السيئة و فضيحة دنشواي من قبل الانجليز و صدر قرار بعزل اللورد كرومر و تعيين لورد آخر أخف منه وطأه وتغيرت سياسة حكومة انجلترا في مصر وأستطاع مصطفي كامل بمفرده مشاركة الشعب المصري في إدارة البلاد عن طريق سعد زغلول كوزير للمعارف وقتها.

- أنشأ مدرسة التعليم فيها مجانياً وجعل يحث المواطنين على إنشاء مدارس أخرى مثلها ليعم التعليم البلاد.

- أنشأ صحيفة العالم الاسلامى.

يرفض تكريمه:

رفض مصطفى كامل أثناء وجوده بفرنسا للدفاع عن القضية المصرية والتنديد بوحشية الإنجليز بعد حادثة دنشواي، تكريمه من لجنة تأسست فى مصر للقيام باكتتاب لدعوته إلى حفل كبير وإهدائه هدية تقديراً لدوره فى خدمة البلاد، باعتبار أن ما يقوم به من واجب وطنى لا يصح أن يكافأ عليه.

علاقة مصطفى كامل بالخديو عباس حلمي الثاني:

ولي عباس حلمي الثاني العرش في ٨ يناير ١٨٩٢ م بعد وفاة والده توفيق وكان عباس حلمي يكن إعجاباً كبيراً بجده إسماعيل المنفي خارج مصر ووصفه ببعد النظر والأستنارة و أنه صاحب الفضل في إرساء مفهوم الوطنية.

كان الخديوي عباس يتطلع إلي مزاولة سلطاته بعيداً عن سيطرة وتوجيه المعتمد البريطاني اللورد كرومر وكانت أبرز المواجهات مع اللورد كرومر قد وقعت عام ١٨٩٣ عندما قام الخديوي عباس بإقالة مصطفي فهمي المعروف بولائه للإنجليز من الوزارة ، وتعيين حسين فخري باشا دون استشارة المعتمد البريطاني.

ولقد أعترض كرومر علي ذلك ، وأبرق إلي حكومته وأضطر الخديوي للمهادنة وتوصلوا إلي حل يحفظ للخديوي كرامته وهو الإيعاز لحسين فخري باشا بتقديم استقالته وتكليف رياض باشا برئاسة الوزارة.

كانت السلطة الشرعية الأسمية يتقاسمها السلطان العثماني و الخديوي ، ولقد عمد الخديوي عباس إلي تحسين علاقته بالسلطان العثماني حتي لا تتفق الدولة العثمانية مع إنجلترا ضده كما حدث للخديوي إسماعيل.

لكن الخديوي عباس حرص أيضاً علي التقرب من الشعب ، فقام بالإفراج عن بعض مسجوني الثورة العرابية، وعين بعضهم في وظائف خارج الجيش، وأعاد إليهم نياشينهم، وعفا عن عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية وسمح له بمزاولة نشاطه علنا.

ولي عباس حلمي الثاني العرش في ٨ يناير ١٨٩٢ م بعد وفاة والده توفيق وكان عباس حلمي يكن إعجاباً كبيراً بجده إسماعيل المنفي خارج مصر ووصفه ببعد النظر والأستنارة وأنه صاحب الفضل في إرساء مفهوم الوطنية.

كان الخديوي عباس يتطلع إلي مزاولة سلطاته بعيداً عن سيطرة وتوجيه المعتمد البريطاني اللورد كرومر وكانت أبرز المواجهات مع اللورد كرومر قد وقعت عام ١٨٩٣ عندما قام الخديوي عباس بإقالة مصطفي فهمي المعروف بولائه للإنجليز من الوزارة ، وتعيين حسين فخري باشا دون استشارة المعتمد البريطاني.

ولقد أعترض كرومر علي ذلك ، وأبرق إلي حكومته وأضطر الخديوي للمهادنة و توصلوا إلي حل يحفظ للخديوي كرامته وهو الإيعاز لحسين فخري باشا بتقديم استقالته وتكليف رياض باشا برئاسة الوزارة.

كانت السلطة الشرعية الأسمية يتقاسمها السلطان العثماني والخديوي ، ولقد عمد الخديوي عباس إلي تحسين علاقته بالسلطان العثماني حتي لا تتفق الدولة العثمانية مع إنجلترا ضده كما حدث للخديوي إسماعيل.

لكن الخديوي عباس حرص أيضاً علي التقرب من الشعب ، فقام بالإفراج عن بعض مسجوني الثورة العرابية، وعين بعضهم في وظائف خارج الجيش، و أعاد إليه نياشينهم، وعفا عن عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية و سمح له بمزاولة نشاطه علنا.

رأي مصطفي كامل أن ينسق أفكاره مع الخديوي عباس ويتفاهم معه بشأن الحركة الوطنية حتي لا يقع في مشكلة التناقض والشقاق الذي حدث بين عرابي وتوفيق.

كما كان يهدف إلي التنسيق مع السلطان العثماني نظراً لتبعية مصر لتركيا ، وفي هذا الخصوص اقترح علي السلطان العثماني عام ١٨٩٧ م أن يوافق علي جلاء الجيش العثماني عن بلاد اليونان مقابل جلاء الإنجليز عن مصر.

ورأي مصطفي كامل الاستفادة من اعتراض فرنسا علي بقاء إنجلترا في مصر ، فاتصل بالسياسيين والمثقفين في فرنسا وسافر عدة مرات إلي فرنسا يكتب في صحفها ويخطب في الاجتماعات العامة من أجل المطالبة بجلاء الإنجليز عن مصر.

قام مصطفي كامل بتكثيف نشاطه من أجل إيقاظ الوعي وتنمية الروح الوطنية وتبصير الناس بخطورة الإحتلال وجريمة التعاون معه والاستسلام له وعلي هذا قام بتأسيس جريدة اللواء الإسلامي عام ١٩٠٠م لتنطق باسم الجلاء ، و دعا إلي وضع الدستور ، واعتمد أكثر علي الدولة العثمانية لمواجهة الإنجليز في إطار حركة الجامعة الإسلامية ، وتحقيقاً لذلك أصدر جريدة أسبوعية باسم العالم الإسلامي عام ١٩٠٥ م .

ولكن الأيام حملت لمصطفي كامل ما لا يتوقع ، فالخديوي عباس وجد أنه لا يستطيع الاعتماد علي الفرنسيين لتخليص مصر من الإنجليز ، وكانت حادثة فاشودة أبرز دليل علي ذلك ، فالفرنسيون الذين أرادوا التوسع في مستعمراتهم في شرق أفريقيا عند النيل الأبيض لم يقدروا علي مواجهة الإنجليز وانسحبوا خائبين وتركوا مدينة فاشودة للسيطرة الإنجليزية .

فأدرك الخديوي عباس أن الفرنسيين الذين لم يقفوا ضد الإنجليز في فاشودة لن يحركوا اصبعاً لإخراج الإنجليز من مصر وبالتالي تنكر الخديوي عباس للحركة الوطنية ومصطفي كامل وسلك طريق المهادنة مع المعتمد البريطاني جورست الذي خلف كرومر فيما عرف بسياسة الوفاق بين عباس وجورست.

وكما أدرك الخديوي عدم قدرته علي الإعتماد علي الفرنسيين ، توصل مصطفي كامل لنفس النتيجة عندما أبرمت الدولتان العظمتان فرنسا وإنجلترا ما عرف بالوفاق الودي في ٨ أبريل ١٩٠٤ م .

أما بالنسبة لتعاون مصطفى كامل مع عباس فله أسبابه أيضاً من وجهة نظر مصطفى كامل.

فأولاً : يجب أن نقرر أن الحركة الوطنية المصرية في ذلك الوقت كانت أضعف من أن تقف بمفردها في المعركة.

ثانياً : أن مصطفى كامل كان يضع في اعتباره هدفاً واحداً وهو الجلاء وعدواً واحداً وهو الاحتلال، لذلك كان مصطفى كامل على استعداد للتعاون مع كل القوى الداخلية والخارجية المعارضة للاحتلال، أما المسائل الأخرى التي كانت العناصر الوطنية المعتدلة، من أمثال حزب الأمة فيما بعد، تضعها في الإعتبار الأول كمسألة الحياة البرلمانية وعلاقة مصر مع تركيا وغيرها فكلها مسائل يجب أن تترك حتى يتخلص المصريون من الاحتلال.

- اهتم بالحياة الثقافية
- في عام ١٨٩٨م ظهر أول كتاب سياسي له بعنوان المسألة الشرقية، وهو من الكتب الهامة في تاريخ السياسة المصرية وفي عام ١٩٠٠م أصدر جريدة اللواء اليومية، واهتم بالتعليم، وجعله مقرونًا بالتربية.
- كان مصطفى كامل يفضل وجود الدولة العثمانية عن الوجود البريطاني أو الوجود المسيحي بشكل عام بالبلاد العربية حيث أن الدولة العثمانية كانت تمثل الخلافة الإسلامية وهي التي كان يرى وجوب الخضوع لها.

- **من أقواله المأثورة:**

لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً.

أحراراً في أوطاننا، كرماءً مع ضيوفنا.

الأمل هو دليل الحياة والطريق إلى الحرية.

لا معني لليأس مع الحياة ولا معني للحياة مع اليأس.

إني أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة.

إن الأمة التي لا تأكل مما تزرع وتلبس مما لا تصنع أمة محكوم عليها بالتبعية والفناء ومن يتهاون في حق من حقوق دينه وأمته ولو مرةواحدة يعش أبد الدهر مزلزل العقيدة سقيم الوجدان.

أسس الحزب الوطنى فعند رجوع مصطفي كامل من فرنسا ألقى خطبة كبيرة ومشهورة جداً في زيزينيا بالإسكندرية انتهت بإنشاء الحزب الوطني مرة أخري وكان كل الرجال الذين يساندون مصطفي كامل جنباً لجنب معه ودعا إلي مبدأ المواطنة التي لعبت عليها انجلترا عند دخولها في مصر وكان من أهم أهداف الحزب الوطني برئاسة مصطفي كامل هو التعليم لمناهضة الاحتلال البريطاني لمصر لكن بعد فترة بسيطة توفي مصطفي كامل وهو في ريعان الشباب .

الحزب الوطني بعد مصطفى كامل:

تركت وفاة مصطفى كامل فراغا كبيرا داخل الحزب الوطني والحركة الوطنية المصرية، فالرجل رغم قصر سنوات عمره فإنه بدأ العمل السياسي قبل سن العشرين، أي أنه أمضى أكثر من ستة عشر عاما في خضم العمل الوطني وقيادته؛ لذلك جاءت وفاته هزة عنيفة للوطنيين ولحزبه الوليد. ومن ناحيته حاول الخديوي عباس احتواء هذا الحزب، ومنع انتخاب محمد فريد رئيسا للحزب؛ لأن فريد لم يكن رجلاً سهل الانقياد؛ فعمل الخديوي على تقريب بعض زعماء الحزب منه وأملى إرشاداته عليهم. لكن محاولات الخديوي فشلت، وتولى محمد فريد رئاسة الحزب.

وقد اتجه فريد بنشاط الحزب إلى المطالبة بالجلاء والدستور، بالإضافة إلى تشجيع الحركة التعاونية، وفتح المدارس التي أطلق عليها مدارس الشعب، وتولى التدريس فيها أعضاء الحزب الوطني، وكانت مدارس ليلية، واهتم الحزب بتأسيس النقابات، فأنشئت في بولاق سنة (١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م) أول نقابة للعمال بمصر، وهي نقابة عمال الصنائع اليدوية، ثم سرت فكرة تأسيس النقابات في عواصم الأقاليم.

وطوَّر محمد فريد طريقة الحزب في الكفاح الوطني؛ فاتبع أسلوب المظاهرات للمطالبة بالدستور، ومنذ ذلك الوقت بدأ يظهر دور الطلبة في الحياة السياسية بمصر. كذلك أرسل محمد فريد خطابات تهديد إلى الخديوي وكبار رجال القصر، وتم تأسيس جمعيات للطلاب المصريين في الخارج للمطالبة بالاستقلال.

وقدم الحزب عرائض للخديوي تطالب بمجلس نيابي جمع فيها (٧٥) ألف توقيع، إلا أن هذه الجهود لم تثمر عن تحقيق الاستقلال أو الدستور؛ حيث جاءت في وقت ظهرت فيه سياسة الوفاق بين الخديوي والإنجليز، وبالتالي صار الحزب الوطني وقادته هدفًا للاحتلال والخديوي معًا.

وقد اتجه بعض عناصر الحزب إلى تشكيل جمعيات، والقيام ببعض الاغتيالات السياسية، فقام أحد رجال الحزب الوطني بأول اغتيال سياسي في تاريخ مصر الحديثة؛ إذ اغتال بطرس غالي رئيس الوزراء عندما أقدم على مد امتياز قناة السويس.

الصراع داخل الحزب الوطني:

وانقسم الحزب الوطني إلى أجنحة متصارعة؛ فكان هناك خلاف بين محمد فريد وعلي فهمي كامل شقيق مصطفى كامل؛ حيث إن علي فهمي لم يكن مستريحًا لسياسة محمد فريد المتشددة من الخديوي، كذلك رأى أنه أحق برئاسة الحزب من محمد فريد، ظنًّا منه أن رئاسة الحزب بالوراثة؛ لذلك قام بحركات انشقاق، ساعده فيها الخديوي الذي اتخذ موقفًا متشددًا من الحزب الوطني؛ فألغى جريدتي اللواء الفرنسية والإنجليزية، ثم أغلق اللواء نفسها نهائيًا سنة (١٣٣١هـ = ١٩١٢) بعد (١٢) عاماً من إنشائها؛ بهدف إضعاف الحزب والسيطرة عليه.

ولما وجد محمد فريد سياسة التضييق على حزبه من قِبَل الخديوي والإنجليز، اتخذ سياسة متشددة، ولم يبال بغضب الخديوي، إلا أن هذه السياسة أغضبت الخديوي عباس؛ فاتهم محمد فريد بتدبير محاولة لاغتياله، وقام باعتقاله سنة ١٩١٢م، وحوكم محمد فريد محاكمات كثيرة، وكلما خرج من السجن عاد إليه، وضيق عليه أيّما تضييق.

الباب الرابع

الزعيم والوحدة الوطنية

التاريخ هو ذاكرة البشرية, وهو وسيلتها لفهم الحاضر والاستعداد للمستقبل وش
عب بلا تاريخ هو كإنسان بلا ذاكرة, لا يستطيع ممارسة خبراته أو

التعرف علي قدراته, أو مواجهة حاضرة, أو التعامل مع مستقبله, ومن هنا

فمعرفة التاريخ شرط أساسي لفهم الحاضر وبناء المستقبل, لقد بدأ الشعب الم
صري علي المصرية أو علي القومية المصرية بسبب الظروف الطبيعية لمصر
التي أنشأت مجتمعا زراعيا علي ضفتي وادي النيل, تجمعه فائدة مشتركة في
إقامة حكومة مركزية, وتكوين كيان موحد ينظم الإفادة من حياة النهر, ويدرأ ب
ه خطر فيضانه وقد ظل هذا الكيان الموحد قائما منذ القدم, وعبر مختلف العصو
ر وتعاقب الغزاة والعهود فتكونت مقومات القومية المصرية منذ القدم, لتسبق م
قومات أية قومية أخري عبر التاريخ لقد دخل المصريون في عام
١٩٠٧ في نمط جديد من الحياة الحزبية أو الحياة السياسية والمشاركة في العمل
الوطني بوجود الحياة الحزبية أو العمل الحزبي, ويمكن القول بدقة
أكثر إن نمو الحركة الوطنية المصرية عمل علي حتمية وجود حياة
حزبية في مصر وضرورة العمل الحزبي من خلال أحزاب منظمة لها

برامج وأيديولوجيات وهياكل تنظيمية لهيئاتها السياسية والجريدة التي تعبر عنه
ا ففي عام
١٩٠٧ كان ميلاد الأحزاب السياسية المصرية بتياراتها المختلفة في العمل

الوطني,

ويذكر أن هذه التجربة المصرية للحياة الحزبية كانت قد استمرت قائمة

فعلياً منذ عام ١٩٠٧ وحتي سنة ١٩٥٢
وإلغاء وحل جميع الأحزاب السياسية القائمة علي الساحة المصرية, ثم عا
نظام التعدد الحزبي من جديد في نوفمبر عام
١٩٧٦ وحتي وقتنا هذا وكان الحزب الوطني هو أول هذه الأحزاب

وبالطبع ليس هو نفسه الحزب الوطني الذي تم حله بقرار المحكمة الذي نشأ علي أنقاض حزب مصر العربي الاشتراكي وظل السادات رئيسا له حتي اغتيل في يوم
٦ أكتوبر عام١٩٨١, وتولي رئاسته حسني مبارك حتي اسقاطه .

كان أول حزب سياسي في مصر هو الحزب الوطني الذي تأسس في يوم
٢٢ أكتوبر عام
١٩٠٧ علي يد الزعيم الراحل مصطفي كامل وتولي رئاسة الحزب من

بعده محمد فريد وكان حزب الأغلبية الساحقة من الشعب.

علي أنه قبل هذا بنحو إحدي عشرة سنة تقريباً وعلي وجه التحديد في عام ١٨٩٦ كانت هناك محاولات من جانب الخديو عباس حلمي الثاني لتجميع قوة وطنية كاسحة تعمل مع مصطفي كامل في خدمة القضية الوطنية

وتكللت هذه المحاولات بالنجاح من خلال تأليف جمعية سرية تحت رئاسة

الخديو أطلق عليه الحزب الوطني وكانت الظروف السياسية علي الساحة

المصرية قد تهيأت لذلك حين ألف أحمد لطفي السيد الذي كان قد عين وكيلاً للن يابة في ذلك العام جمعية سرية من زملائه غرضها الأساسي كما يقول هو نف سه: تحرير مصر وضمت هذه الجمعية فيمن ضمت كلا من عبد العزيز فهمي وأحمد طلعت رئيس النيابة, وهذا الحزب الوطني الذي يتحدث عنه أحمد لطفي السيد غير الحزب الوطني الذي ألفه مصطفي كامل عام ١٩٠٧, فالأول كان عبارة عن جمعية سرية تحت رئاسة الخديو, وكان يجتمع بها ليلاً في مسجد بناحية سراي القبة, والثاني هو الحزب الوطني الذي ألفه

مصطفي كامل في ظروف مختلفة تماماً ويقول أحمد لطفي السيد إن أسماء هذه الجمعية السرية كانت مستعارة, فقد كان اسم الخديو بين الأعضاء الشيخ, مص طفي كامل أبوالفداء, أحمد لطفي السيد أبومسلم! وكانت فكرة الخديو هي إنشاء جريدة في مصر تقاوم الاحتلال

البريطاني وتكون غير خاضعة لسلطة الاحتلال وخلال عام ١٨٩٩ أخذ مصطفي كامل يعد العدة لإصدار جريدة يومية يتصل من خلالها ب الرأي العام في مصر, خصوصا بعد أن أخذت جريدة المؤيد الوثيقة الصلة

بالخديو, تبدي نوعا من الفتور في نشر بعض مقالات مصطفي كامل بسبب

فتور علاقته مع صاحبها, وصدر العدد الأول من جريدة اللواء

يوم الثلاثاء الموافق ٢ يناير عام ١٩٠٠,

وبصدور اللواء يدخل نضال مصطفي كامل الوطني منعطفاً خطيرا فهو

يمثل البداية الحقيقية لصياغة الرأي العام في مصر صياغة وطنية صلبة ضد الاحتلال, ويمثل بالنسبة لمصطفي كامل البداية الصحيحة لزعامته

السياسية.

لكن إنشاء جريدة اللواء كان بمثابة اللبنة الأولي في تأسيس الحزب الوطني, ليس بمعني الجمعية السرية التي تألفت قبل أربع سنوات تحت رئاسة الخديو, وإنما بمعني الحزب الجماهيري الذي يعمل تحت رئاسة مصطفي كامل,

والذي ارتفع بمستوي المعركة التي كانت دائرة علي السلطة بين الخديو

عباس والإنجليز إلي مستوي معركة وطنية لتحرير البلاد, وفي الحقيقة أن

الأحزاب السياسية في مصر نشأت في تلك الفترة التاريخية في شكل صحف

أول ما ظهر في شكل صحيفة سياسية باسم الجريدة صدرت في يوم ٩ مارس عام١٩٠٧, كما تحولت جريدة المؤيد إلي حزب الإصلاح علي

المبادئ الدستورية في يوم ٩ ديسمبر عام ١٩٠٧, ثم تحولت جريدة اللواء إلي الحزب الوطني في يوم ٢٢ أكتوبر عام١٩٠٧ وهذا هو الذي دعا بعض المؤرخين إلي وصف هذا

الطور من أطوار الحركة الوطنية باسم الطور الصحافي,

وقد بني التيار الغالب سياساته ومواقفه السياسية علي

العداء للاحتلال الإنجليزي والسعي للتخلص منه والارتباط بالدولة العثمانية

صاحبة السلطة القانونية في البلاد, إلي جانب الاتفاق مع خديوي مصر, وكانت جريدة اللواء هي صوت الحزب ولسان حاله.

هكذا اشتد ساعد الحركة الوطنية المعادية للاحتلال البريطاني بعد حادثة

دنشواي عام ١٩٠٦, وأسس مصطفي كامل الحزب الوطني عام
١٩٠٧, وفي يونيو سنة
١٨٩٧ كان قد ألقي كلمة بمدينة الإسكندرية قال فيها: إن المسلمين

والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والتقاليد ولا يمكن التفريق بينهما إلي الأبد, وقال في خطبة أخري ألقاها
علي مسرح زيزينيا بمدينة الإسكندرية وحضرها نحو سبعة آلاف من

المصريين في يونيو عام ١٩٠٠ كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو إلي البغضاء فالأقباط إخوة لنا في الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة وقد عشنا

معهم قرون لطوال علي أتم وفاق وأكمل اتفاق,

وقد ارتبط المصريون بالزعيم مصطفي كامل باعث الحركة الوطنية

واليقظة القومية بعد الانكسار الذي حدث في البلاد إبان عام ١٨٨٢ بهزيمة أحمد عرابي واحتلال الإنجليز لمصر, لذلك حين أسس

الزعيم الراحل مصطفي كامل الحزب الوطني اقبلت أعداد هائلة على الانضمام إلي الحزب, فقذ بلغ عدد الأعضاء الحاضرين في أول اجتماع

للجمعية العمومية في ديسمبر عام ١٩٠٧ نحو ١٠١٩ عضواً, بينما بلغ عدد المعتذرين حوالي ٨٤٦ عضواً, أي أن عدد الأعضاء في الحزب كان يقرب من ألفي عضواً , بالإضافة إلي غيرهم من الأعضاء غير العاملين, ومن هذه الجمعية

العمومية انبثقت اللجنة الإدارية المكونة من ٣٠ عضواً بخلاف الرئيس (مصطفي كامل) كما كان للحزب لجاناً فرعية في المدن الكبري علي

مستوي القطر المصري كانت ميدانا لنشاط أغلب المصريين, وانضم

كثيرون من الأقباط إلي الحزب الوطني كما انتخب من بين لجنة الثلاثين

الإدارية الأستاذ ويصا واصف رئيس مجلس النواب سابقا, ولم يكن للدين أي مكان في برنامجه فلم يرسم حدودا فاصله بين المسلم والقبطي,

وكانت مصر المتحدة هي حلمه الأسمي وهدفه ونجح مصطفي كامل في دمج بعض الأقباط مع المسلمين داخل حزبه وحثهم علي التخلص من من افساتهم وتعصبهم فاعتبر أول مؤسس للوحدة الوطنية يضم المسلمين والأقباط في تنظيم سياسي واحد منظم, ورغم كل مظاهر الوحدة الوطنية هذه فإن الحزب الوطني كان مصرياً بالدرجة الأولي وإسلاميا بالدرجة الثانية, ورغم وطنية دعوة مصطفي كامل لجلاء الإنجليز عن مصر إلا أنه لم يكن وطنياً كاملاً من وجهة نظر كثير من الأقباط, ففي الوقت الذي دعا فيه إلي جلاء البريطانيين عن مصر وغدر بهم وبأعمالهم, وذكر علي المصريين تهاونهم واستسلامهم وتسليمهم للبريطانيين لم يذكره الأتراك بسوء إذ كان يؤمن بالولاء التام للسلطان العثماني ودعا إلي الخضوع له, وكان مصطفي كامل من خلال اللواء جريدة حزبه لا يدخر وسعاً في دعوة الشعب المصري إلي الالتفاف حول الخديو عباس الثاني باعتباره أول أمير أرشد الأمة إلي محبة الوطن وأوقفها علي ما لها من الحقوق, وما يجب أن تكون عليه من المجد الجزيل والشرف , كما آمن أيضا بالجامعة الإسلامية دينياً وسياسياً,

ولم يستطع هؤلاء الأقباط أن يناهضوا هذه الدعوة فهم وإن آمنوا بعدم شرعية الاحتلال البريطاني إلا أنهم لم يستطعوا أن يؤيدوا دعوة تدعوهم إلي أن يستبدلوا بالسيد البريطاني سيداً آخر وهو السيد العثماني لذلك وقف غالبية الأقباط من حركة مصطفي كامل وقفة المتردد غير المؤمن بها فلم ينضم إلي الحزب الوطني إلا ويصا واصف ومرقس حنا وقلة قليلة جدا من الأقباط, ومن أشهر كلماته: بلادي بلادي لك حبي وفؤادي لك حياتي ووجودي. لك دمي ونفسي لك عقلي ولساني. لك لبي وجناني فأنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر, لكن بسبب السياسة الإنجليزية في إثارة الفتنة الطائفية بين الأقباط والمسلمين وقيام حرب المقالات الصحفية بين الفريقين إلي جانب الدعوة إلي قيام الجامعة الإسلامية داخل الحزب نجد أن كثيرين من الأقباط قدموا استقالاتهم من عضوية الحزب, وفي مقدمتهم ويصا واصف وذلك في أغسطس عام

١٩٠٨ بعد وفاة مصطفي كامل المفاجئة في يوم

١٠ فبراير, ولم ينجح خلفاؤه في حفظ الوحدة الوطنية بين الأقباط والمسلمين.

هكذا شارك الأقباط بفاعلية تامة حقيقية في كل مراحل العمل الحزبي بدءا من اجتماعات التأسيس والتشكيل وصياغة البرامج والأيديولوجيات التي تعبر عن مبادئها العامة وأفكارها والصحف التي تتكلم بلسانها وتعبر عن تيارها ومنهجها في العمل الوطني والمشاركة الإيجابية في كل قضايا

الوطن والموقف تجاه الاحتلال الإنجليزي وعند تولي المسئولية في تشكيل الوزارات التي تحكم البلاد أو في عضوية البرلمان المصري مجلس

الشعب القائم بالانتخابات الحرة نجد المشاركة الإيجابية الفعالة للأقباط بلا افتعال رغم كل الصعوبات وكافة الظروف التي مرت علي الحياة

السياسية فى مصر, ويمكن أن نوضح أسباب هذه المشاركة فيما يلي:

أولا: وعي الأقباط بالمشاراكة والمساهمة في قضايا الوطن وهمومه بداف ع الانتماء والارتباط بالأرض والكيان المصري والمسيرة التاريخية التي صنعوها وشكلوها وكتبوها عبر العصور.

ثانيا: حقيقة الشعب المصري الواحد علي أرض الواقع المصرية في الحياة اليومية المشتركة بين كل أبناء هذه الجماعة الواحدة وما تحمله هذه الحياة المشتركة من تراث وعادات وتقاليد ومبادئ ومفاهيم وقيم ونظم وقوانين وأعراف تعبر كلها في مضمونها عن الإنسان المصري بصرف النظر

عن انتمائه الديني إلي جانب الهموم المشتركة والقضايا الواحدة والمصير الواحد والرؤية المستقبلية الواحدة التي تحدد وتشكل المسيرة الوطنية نحو مجتمع واحد ينتمي إلي أرض مصر ونيلها الخالد. ثالثا: إن زعماء مصر ومفكريها الذين تحملوا المسئوليات في قيادة الشعب المصري أكدوا تماما

أن الأقباط من نسيج هذا الشعب الواحد وأن الأقباط مواطنون

مصريون لهم كافة الحقوق وعليهم أداء كل الواجبات تجاه وطنهم الذي يع يشون فيه وبالتالي حرص كل الزعماء علي المشاركة الحقيقية للأقباط

وعلي دورهم المنوطين به, لهذا نجد الأقباط يدخلون كافة الأحزاب

السياسية المصرية ويعملون فيها ومن خلالها ويندمجون في كل الأنشطة والمسئوليات التي يحددها كل حزب علي حدة.

لذا يمكننا التأكيد علي أن نظرة الشعب المصري جميعاً مسلمين وأقباط إلي زعيمهم الراحل مصطفي كامل كانت قد تأثرت إلي حد كبير جداً بمدرسة الحزب الوطني في كتابة التاريخ, وهي المدرسة أو الاتجاه الذي كان

يمثله المؤرخ الكبير الأستاذ عبدالرحمن الرافعي, الذي كتب سلسلته

المعروفة والقيمة في تاريخ الحركة لقومية والوطنية المصرية, ولما كانت

مدرسة الحزب الوطني في كتابة التاريخ هي مدرسة سياسية

وليست مدرسة تاريخية, فقد ترتب علي هذا الاتجاه اصطباغ نظرة المصر يين وتعلمهم لتاريخهم الحديث والمعاصر بصبغة الحزب الوطني السياسية وهي صبغة منحازة بالضرورة تعمل باستمرار علي تبرير أخطاء الحزب الوطني كلما وجدت إلي ذلك سبيلا, وتصور زعماؤه في حالة من البطولة الفذة المجردة من كل الأخطاء البشرية, وقد ساعد علي نشر وجهة نظر الحزب الوطني في تاريخ مصر ما تمتع به عبد الرحمن الرافعي من شهرة واسعة قبل اندلاع الثورة, ثم بعد الثورة ثم تبنت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لنظرة الحزب الوطني لتاريخ مصر المعاصر, والمعادية لحزب الوفد, بعد اصطدامها به علي السلطة والحكم وعملها علي تصفيته, خصوصا بعد أن لعب الأستاذ فتحي رضوان قطب الحزب الوطني دوراً سياسيا في هذا الصدد بعد أن اختير وزيراً للإرشاد القومي علي مدي سنوات عديدة, علي أنه لما كانت المدرسة التاريخية الحديثة تنظر إلي البطولة الشعبية في صورتها الإنسانية, وفي إطار التحامها بالشعب صانع البطولات في الأساس, وتعمل علي تجريدها من هالات البطولة الإلهية المنفصلة عن الواقع المعاش.

الباب الخامس

الزعيم وحادثة دنشواى

حادثة دنشواى:

تعد حادثة دنشواي في يونية ١٩٠٦ م آخر فظائع المعتمد البريطاني اللورد كرومر في مصر وتتلخص في أن بعض الضباط الإنجليز خرجوا لصيد الحمام بالقرب من قرية دنشواي،فحذرهم الأهالي أن اقتراب البارود من أجران القمح يمكن أن يشعل حرائق كبيرة لكن الضباط الإنجليز لم يهتموا فأخطأت إحدي الطلقات فأصابت إمرأة وقتلتها فهاج الأهالي علي الضباط وطاردوهم، حتي أصيب أحد الإنجليز بضربة شمس ومات لكن الإدارة البريطانية أحالت ٥٢ فلاحاً للمحاكمة وانتهت المحاكمة إلي الحكم بشنق أربعة منهم ومعاقبة ١٢ بالأشغال الشاقة المؤبدة وجلد خمسة.

استغل مصطفي كامل الحادثة في التنديد بالاحتلال في كل من مصر وأوروبا، فقامت إنجلترا بسحب اللورد كرومر في أبريل ١٩٠٧م وعينت جرورست خلفاً له في مصر كما هاجمت صحيفة اللواء التي أنشأها مصطفي كامل رئيس الوزراء بطرس باشا غالي لموالاته للإنجليز وإصداره احكام بالإعدام والجلد في حادثة دنشواي، مما أهاج المصريين حتي قام شاب اسمه إبراهيم الورداني باغتياله عام ١٩١٠م أثناء خروجه من مقر رئاسة الوزراء.

وتم القبض علي الورداني وحكم عليه بالإعدام وتعد حادثة اغتيال بطرس غالي هي الثانية في تاريخ مصر الحديث بعد اغتيال كليبر، ثم تتابعت حوادث الاغتيال السياسي في تاريخ مصر الحديث والمعاصر

أدرك مصطفي كامل ضرورة تنظيم الجهود الوطنية بعد حادثة دنشواي فأنشأ نادي المدارس العليا والحزب الوطني في ديسمبر ١٩٠٧، وأصدر طبعتين إنجليزية وفرنسية من جريدة اللواء للقارئ الأوروبي.

وتعود بدايات الحكاية إلى عام ١٩٠٦، حين صدرت أوامر الحكومة في مصر إلى عُمد بعض البلاد بمساعدة كتيبة تابعةٍ للاحتلال البريطاني آنذاك مكونة من خمسة ضباط ممن كانوا يرغبون في صيد الحمام ببلدة دنشواي كما اعتادوا وفي نهارٍ يوم ١٣ يونيو عام ١٩٠٦، كان الضباط الإنجليز في رحلة صيد حمام بجوار قرية دنشواي بالمنوفية المشهورة بكثرة حمامها بدعوة من عبد المجيد بك سلطان أحد أعيان القرية.

تجول هؤلاء الضباط الإنجليز بقيادة الميجور بين كوفين بالقرب من القرية المنكوبة ومعهم الأومباشي العريف أحمد حسين زقزوق والترجمان عبد العال صقر وكان الميجور مغرماً بصيد الحمام فأقنع رجاله وهم: الكابتن بول، الملازمان بورثر وسميث، الطبيب البيطري الملازم بوستك - بأن يتراهنوا لاصطياد الحمام من على أشجار دنشواي وكان كوفين وبول وبوستك يطلقون الرصاص لاصطياد الحمام بجوار الأشجار على جانبي الطريق الزراعي، ولكن تشاء الأقدار أن يتوغل بورثر وسميث داخل القرية حيث كان الحمام عند أجران الغلال يلتقط الحَبوب ويصوب بورثر بندقيته إلى جُرن الحمام الخاص بالشيخ محمد عبد النبي مؤذن البلدة، فتفقد زوجة الشيخ وعيها بعد أن أصابتها خرطوشة.

وتفيد روايات أخرى بأن مؤذن البلدة جاء يصيح بهم كي لا يحترق التبن في جُرنه، لكن أحد الضباط لم يفهم منه ما يقول وأطلق عياره فأخطأ الهدف وأصاب المرأة، وتدعى أم محمد واندلعت النار في التبن بفعل البارود المشتعل، فهجم الرجل على الضابط وأخذ يجذب البندقية وهو يستغيث بأهل البلد صارخاً الخواجة قتل المرأة وحرق الجُرن، الخواجة قتل المرأة وحرق الجُرن، فأقبل الأطفال والنسوة والرجال صائحين قتلت المرأة وحرقت الجُرن، وهرع بقية الضباط الإنجليز لإنقاذ صاحبهم وفي هذا الوقت وصل الخفراء للنجدة كما قضت أوامرهم، فتوهم الضباط على النقيض أنهم سيفتكون بهم فأطلقوا عليهم الرصاص وأصابوا بعضهم فصاح الجمع قتل شيخ الخفر وحملوا على الضباط بالطوب والعصي، فألقى الخفراء القبض عليهم وأخذوا منهم الأسلحة إلا اثنين منهم وهما كابتن الفرقة وطبيبها اللذين أخذا يعدوان تاركين ميدان الواقعة وقطعا نحو ثمانية كيلومترات في الحر الشديد حتى وصلا إلى بلدة سرسنا، فوقع الكابتن بول مطروحاً على الأرض ومات بعد ذلك متأثراً بضربة شمس إثر عدوه لمسافة طويلة تحت أشعة الشمس.

عندها تركه زميله الطبيب وأخذ يعدو حتى وصل إلى المعسكر، وصاح بالعساكر فركضوا إلى حيث يوجد الكابتن، فوجدوه وحوله بعض الأهالي، فلما رآهم الأهالي لاذوا بالفرار، فاقتفى العساكر أثرهم وألقوا القبض عليهم إلا أحدهم - ويُدعى سيد أحمد سعيد - هرب قبل أن يشد وثاقه واختبأ في فجوة طاحونةٍ تحت الأرض

فقتله الإنجليز شر قتلة، بعد أن انهالوا عليه ضرباً بالسونكي، حتى أصبحت أكبر قطعة في رأسه كما ذكرت مجلة المجلات العربية التي صدرت بعد الحادث مباشرة في حجم عملة النقود الصغيرة التي تسمى بالقرش تعريفة.

واصل الجنود الإنجليز سيرهم إلى دنشواي، ليتسلموا بقية الضباط، الذين كانوا قيد التحفظ في الجرن الذي أشعلوا فيه النار وفي ظل الاحتلال، تختل الموازين وتأخذ العدالة إجازة فقد تجاهل الإنجليز جريمة قتل سيد أحمد سعيد، والإصابة التي تعرض لها كل من أم محمد، وعامر عدس، وشحاتة داود وعلي الدبشة، وأخذوا يبحثون عن عدالة تقتص لمقتل الكابتن بول، الذي أكد زميله الطبيب بوستك إنه كشف عليه طبياً، وتبين له أن سبب الوفاة احتقان في المخ من أثر ضربة الشمس التي تعرض لها بسبب مسيرته الطويلة تحت الشمس الحارقة.

جاء رد الفعل البريطاني قاسياً وسريعاً، فقد ألقي القبض على عشرات الفلاحين، وأحيل ٦٠ منهم بينهم ٨ هاربين إلى المحاكمة بتهمة القتل المتعمد وطبقاً للقانون العرفي الصادر في ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ لحماية أرواح قوات الاحتلال البريطاني، وبناء على قرار الاتهام المقدم من محمد شكري باشا مدير المنوفية، صدر في يوم ٢٠ يونيو عام ١٩٠٦ قرار بتشكيل محاكمة خاصة وأن يكون انعقادها في شبين الكوم يوم الأحد ٢٤ يونيو وكانت المحكمة برئاسة بطرس باشا غالي نيروز ناظر الحقانية بالنيابة، وعضوية كلٍ من أحمد فتحي بك زغلول (حمل لاحقاً لقب: باشا) رئيس المحاكم الأهلية

ومستر وليام جودنفا هيتر المستشار القضائي بالنيابة،ومستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الأهلية، وكان القاضي العسكري الكولونيل لادلو يمثل جيش الاحتلال، أما سكرتير المحكمة فكان عثمان بك مرتضى وقام بالدفاع عن المتهمين كلٌ من أحمد لطفي السيد وإسماعيل عاصم ومحمد بك يوسف وعثمان بك يوسف وتولى إبراهيم بك الهلباوي الادعاء في المحاكمة التي استمرت من ٢٤ إلى ٢٧ يونيو.

وهنا جاء دور الهلباوي في تلك المسرحية الهزلية:

على رغم من أن الناس عرفوا إبراهيم الهلباوي كأحد أعظم المحامين الذين أنجبتهم مصر، فإن حياته تعد نموذجاً تقليدياً لقصة حياة البطل الذي يخطىء مرةً واحدةً فيهيل على تاريخه التراب، ويظل مثل سيزيف يكافح طوال ما تبقى من عمره دون جدوى للصعود بالصخرة إلى قمة الجبل، دون أن يغفر له أحدٌ خطيئته في حق الشعب.

أحب شعب مصر آنذاك إبراهيم الهلباوي الذي وصفه عباس محمود العقاد ذات مرةٍ بأنه كان ذا ذلاقة لسانٍ لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها وكان الهلباوي وهو من قرية العطف في محافظة البحيرة خطيباً مفوهاً وممثلاً رائعاً يمزج بين العربية الفصحى والعامية البسيطة ويتحرك بخفةٍ ورشاقة، يجبر المحكمة على سماعه ويجعل من يسمعه ويراه مشدوهاً بعبقرية هذا الرجل

قال عنه عبد العزيز البشري إنه شيخ يتزاحف على السبعين إن لم يكن قد اقتحمها فعلاً، عاش مدى عمره يحبه ناس أشد الحب ويبغضه ناس أشد البغض إلا أن هؤلاء وهؤلاء لا يسعهم جميعاً إلا التسليم بأنه رجل عبقري.

كان الهلباوي يقف في المحكمة فيهز مصر كلها بفضل حججه القانونية البارعة التي جعلته يُدعى أعظم طلاب المرحمة، على حد وصف معاصريه لكنه فشل في طلب الرحمة لنفسه من الشعب في حادثة دنشواي وعلى امتداد ٣٠ عاماً طويلة حاول أن يُكفِرَ عن ذنب ارتكبه، لكن الشعب أصم أذنيه لأن الذنب كان من النوع الذي يصعب نسيانه وغفرانه كان الهلباوي في عزبته في البحيرة إذ وقعت حادثة دنشواي، فلما سمع بها اعتزم حضور التحقيق مع المتهمين الأبرياء يوم السبت الموافق ١٦ يونيو عام ١٩٠٦، لكنه لما وصل إلى طنطا وهو في طريق العودة من البحيرة إلى القاهرة، تبين له أن التحقيق كان يجري في البتانون، فعدل عن رأيه لبُعد المسافة وارتفاع درجة الحرارة في ذلك اليوم وعلى رصيف القطار في القاهرة، وجد الياور الخاص برئيس الوزراء مصطفى فهمي باشا يخبره أن الباشا ينتظره في مكتبه لأمرٍ مهم ثم التقى الهلباوي بمحمد محمود بك رئيس حزب الأحرار الدستوريين فيما بعد، وكان آنذاك سكرتيراً خاصاً لمستشار وزير الداخلية الإنجليزي ميتشل، الذي سأله عما إذا كان أحد من المتهمين في حادثة دنشواي قد وكله للدفاع عنه فلما نفى ذلك أخطره بأن الحكومة قد اختارته ليمثلها في إثبات التهمة ضد المتهمين باعتباره من أكبر المحامين سناً وأقدمية.

المفاجأة كانت في حسم الهلباوي تردده وقبوله المهمة، بل وتواضعه في تحديد أتعابه، فمع أنه كان يتقاضى ٥٠٠ جنيه في القضايا الكبرى، فإنه خفض أتعابه في هذه القضية، فقبِلَ ٣٠٠ جنيه فقط.

وبدا لكثيرين أن الهلباوي لا فرق لديه بين أن يدافع عن المتهم البرىء،أو أن يكون المدعي العام الذي يثبت عليه الاتهام ليطالب بإعدامه وهكذا استقبل الهلباوي في مكتبه مستر موبيرلي المفتش الإنجليزي لوزارة الداخلية ومستر مانسفيلد الحكمدار الإنجليزي لبوليس القاهرة اللذين أبلغاه أنهما مكلفان بأن يكونا في خدمته في كل ما يتعلق بقضية دنشواي، واقترحا عليه أن يحضر التحقيق وأن يشارك في استجواب المتهمين، لكنه اعتذر عن ذلك وفضلَ أن يزور مسرح الأحداث ليعاينه وفي تلك القضية، ترافع الهلباوي ثلاث ساعات في ليلة ٢٦ يونيو وفي صباح اليوم التالي استخدم الهلباوي دهاءه لتكييف واقعة اعتداء الفلاحين بالضرب على الضباط الإنجليز بحيث يثبت أن الحريق الذي وقع في الجُرن نتيجة رصاص الضباط الإنجليز أثناء رحلة الصيد في دنشواي، هو حادثٌ تالٍ للاشتباك بين الفلاحين والضباط، وهو ما لم يكن صحيحاً بل إن الهلباوي زعم أن الضباط الإنجليز لم يكونوا أصلاً السبب في حدوث حريق الجُرن، وأشار إلى أنه حريقٌ متعمد اصطنعه الفلاحون ليخفوا أدلة سبق إصرارهم وتعمدهم التحرش بالضباط الإنجليز والاعتداء عليهم بالضرب.

وفي ظل تراخي فريق الدفاع عن المتهمين واكتفائه بطلب الرأفة، تمكن الهلباوي من تبرئة الضباط الإنجليز من الأخطاء والجرائم التي ارتكبوها، في حين زاد من مسؤولية الفلاحين عن الحادثة واتخذ الهلباوي من نجاح الفلاحين في إخماد النيران في الجُرن في غضون ربع ساعةٍ فقط دليلاً على أن الفلاحين هم الذين أطفأوا النيران بعد أن أشعلوها.

ولم يبق في إثبات ركن سبق الإصرار على القتل والشروع فيه سوى إثبات أن فكرة القتل لم تكن عرضيةً وإنما كانت نيةً مبيتة وصوَّر الهلباوي الأمر أمام المحكمة وكأن الفلاحين رتبوا الأحداث بحيث صمموا على قتل الإنجليز إذا جاءوا للصيد في قريتهم وكان الملازم بورثر قد ذكر أثناء إدلائه بأقواله أمام المحكمة أن المتهم التاسع عبد المطلب محفوظ قد حماه هو وزملاءه من العدوان عليهم، وقدم إليهم المياه ليشربوا، وهي شهادةٌ كانت كافية لتبرئته.

وعندما جاء الدور على الشاهد فتح الله الشاذلي نجل عمدة دنشواي، ورد في أقواله هو الآخر أنه قد قدم الماء للضباط فتنبه الهلباوي إلى نقطةٍ جزم بأنها فاتت على الملازم بورثر، ووقف ليقول إنه يلاحظ شبهاً كبيراً في الملامح بين المتهم عبد المطلب والشاهد فتح الله، وإنه يعتقد أن الأمر قد اختلط على الملازم بورثر فاستدعت المحكمة الضابط الإنجليزي الذي حسم الأمر.

وقال إن الذي سقاه هو ابن العمدة وليس المتهم وبذلك حرم الهلباوي المتهم التاسع من فرصته للنجاة من الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة وعلى هذا النهج نري كيف بذل إبراهيم الهلباوي جهداً ضخماً في تفنيد كل ما جاء في أقوال المتهمين والشهود ليهدم كل واقعةٍ يمكن أن تتخذ ذريعةً للتخفيف عن المتهمين الأبرياء في حادثة دنشواي، وليثبت للمحكمة أن الحادثة ارتكبت عمداً ومع سبق الإصرار، حتى يفوز بما كان قد اتفق عليه مع سلطات الاحتلال ويعطي المحكمة مبرراً للحكم بالإعدام على المتهمين. بل إنه فند التقارير الطبية التي قالت إن الضحية الوحيدة في الحادثة وهو الكابتن البريطاني بول، قد مات متأثراً بضربة شمس، وأكد أن موت بول بضربة شمس لا ينفي أن المتهمين هم الذين قتلوه لأنهم هم الذين ضربوه، وألجأوه إلى الجري تحت أشعة الشمس كما أن الهلباوي اتهم المتهم البريء حسن محفوظ بأنه لم يكدر قريةً بل كدَّر أمةً بأسرها بعد أن مضى علينا ٢٥ عاماً ونحن مع المحتلين في إخلاصٍ وأمانة أساء إلينا وإلى كل مصري فاعتبروا صوتي صوت كل مصري حكيمٍ عاقل يعرف مستقبل أمته وبلاده.

وبذلك قتل الهلباوي شعبه كله بعد أن صدرت أحكام غير قابلة للطعن بإعدام أربعة متهمين، هم: حسن علي محفوظ، يوسف حسني سليم، السيد عيسى سالم، ومحمد درويش زهران كما قضت المحكمة بالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين - هما محمد عبد النبي وأحمد عبد العال محفوظ- والسجن ١٥ سنة على أحمد السيسي، والأشغال الشاقة لمدة ٧ سنوات على ٦ آخرين، غير أحكام أخرى بالجلد ٥٠ جلدة على ٨ من أهل القرية.

رفع اللورد كرومر راية الدم فور صدور الحكم، وفي الثانية من ظهر يوم ٢٨ يونيو جرى تنفيذ تلك الأحكام الجائرة، بعد محاكمةٍ استمرت بضعة أيام فقط وأمام أعين الأهالي وقامت الصحافة المصرية في ذلك الحين بتغطية الحادث وأفردت له صفحات طوال واختلفت المعالجة وفقاً لسياسة كل صحيفة، فبينما نددت به صحيفة اللواء وقامت الأهرام بوصف الحدث المحزن، ظهر جلياً موالاة صحيفة المقطم للاحتلال الإنجليزي.

وكتبت صحيفة الأهرام تحت عنوان إنفاذ الحكم في دنشواي تصف وقائع تنفيذ أحكام الإعدام والجلد على المتهمين فقالت في الساعة الرابعة من صباح هذا اليوم ازدحمت شوارع شبين الكوم بالجماهير لرؤية المتهمين الذين يرسلون إلى دنشواي لإنفاذ حكم المحكمة المخصوصة عليهم وكان رجال البوليس المصري ورجال جيش الاحتلال يحافظون على النظام وهم على صفين شاهرين السلاح وفي الساعة ٦ صباحاً وصلت إلى محطة البتانون فوجدت المحطة مزدحمة بالأهالي وبينهم الوصفاء ووكلاء الجرائد ومكاتبوها وكلهم يبحث عن ركوبة توصلهم إلى دنشواي ولم يتوصلوا إلى بغيتهم إلا بكل صعوبة وبلغت أجرة الحمار عشرين قرشاً صاغاً في الذهاب والإياب وهي أجرة لم أسمع بها في مدة إقامتي بالمنوفية لأن يومية الحمار لا تزيد على خمسة قروش صاغ فتركت نقطة الشهداء والنفس حزينة لمنظر أولئك الذين يبكون ذويهم وهم صابغون وجوههم ورابطون رقابهم ودموعهم تتناثر وأصواتهم ترتفع

ولما وصلت دنشواي نظرت إلى تلك الأبراج العديدة فلم أر ذلك الحمام الذي كان يحوم كعادته حينما كنت أمر على تلك الناحية لقضاء أعمالي كأنه حزن على ما كان فأقسم أن ينوح في أبراجه فلا يخرج في ذلك اليوم العصيب وفيها ثلاث خيام خيمة منها بالجهة الغربية وقد أعدت لوضع جثث الذين يعدمون وخيمة بالجهة الشرقية لوضع جميع المتهمين فيها قبل تنفيذ الأحكام والثالثة إلى جانبها أيضاً وهي لوضع المتهمين المراد جلدهم بعد إنفاذ الجلد وفي ساعة وصولي كانوا يشتغلون بنصب المشنقة التي يتطلب نصبها زمناً طويلاً وكان الجلاد يلاحظ إقامتها ويساعد النجار المخصص لها وكثير من الخفراء يخدمونه في عمله المشؤوم وقد علقت في أطراف المشنقة آلات الجلد ورأيت الأهالي في حزن لا أستطيع وصفه وحسب القارئ أن يتصور أناساً يتوقعون مقتل ذويهم أمام عيونهم.

وصل المتهمون للساحة التي أعدت لتنفيذ الأحكام عليهم فيها فلا تسل عن الصراخ والبكاء أما صحيفة المقطم فقد كتبت مقالا تعليقاً على الحادث تحت عنوان الحادثة المشؤومة في دنشواي تقول: فأول تلك الحقائق ابتعاد الضباط الإنجليز عن الشر وحبهم العجيب للمسالمة وخلوص طويتهم وصفاء نيتهم إلى حد لا يكاد يصدق فقد ذهبوا لصيد الحمام وهم يحسبون أنهم معدودون ضيوفاً كراماً وأنهم ينزلون على الرحب والسعة في كل مكان وأنه لا يضن أحد عليهم بحمامات لو طلب ثمنها منهم لدفعوا قدر عددها جنيهات.

وجعلوا يصيدون الحمام بعيداً عن البلدة والأجران فلم يمس أحد بسوء من جراء ذلك ولكن قوماً من الأهالي أنكروا أمر هذا الصيد فجعل بعضهم ينازع أحد الضباط بالكلام والحقيقة الثانية أن أهل دنشواي فعلوا حينئذ فعلاً يحل عنه أهل الشرق ولا يليق بأبناء مصر الكرام فقد كان الواجب عليهم إكرام الضيف على كل حال ولا سيما بعد ما رأوهم لابسين الحلة العسكرية فعلموا أنهم ضباط في جيش الاحتلال ولجيش الاحتلال الفضل الأعظم على كل فلاح في بر مصر بلا جدال.

وفي عدد آخر كتبت تقول ساءت حادثة دنشواي هذه العالم المتمدن عموماً وعقلاء مصر خصوصاً لما ارتكبه أهل دنشواي فيها من الجرائم الفظيعة والعيوب الفاضحة حتى بات كل مصري عاقل يغار على بلاده يتبرأ منهم.

جريدة اللواء لصاحبها مصطفى كامل باشا قالت لا حديث لأهل الأرض في هذه الأثناء سوى حادثة دنشواي الفظيعة التي مثلت أدوارها إلى آخر فصل مريع وهو تنفيذ ذلك الحكم القاسي بما جعل الناس يذكرون أحكام المماليك الاستبدادية بنوع من الرأفة أمام ما رأوه في هذه الأيام.

وتكتب الجريدة في صفحتها الأولى مقال يا دافع البلاء الإعدام والتعذيب في دنشواي لكاتبها أحمد حلمي وقال فيه وحينئذ كان دمي قد كاد يجمد في عروقي من تلك المناظر الفظيعة فلم أستطع الوقوف بعد الذي شاهدته.

كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه هذا ورجائي من القراء أن يقبلوا معذرتي في عدم وصف ما في البلدة من مآتم عامة وكآبة على كل بيت وحزن باسط ذراعيه حول الأهالي حتى إن أجران غلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية وتأكل منها الأنعام والدواب كأن لا أصحاب لها لأني لم أتمالك نفسي وشعوري أمام البلاء الواقع الذي ليس له من دافع.

ويقول د. محمد حسين هيكل: ونفذ هذا الحكم بطريقةٍ همجية لا عهد للإنسانية بها منذ عصورها المظلمة فقد نصبت المشانق التي أُرسلَت إلى قرية دنشواي قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الأهالي مباشرة ونصبت إلى جانبها آلات الجلد وغداة صدور الحكم نفذ على صورةٍ يقشعر من هولها البدن فكان كل محكومٍ عليه بالإعدام يعلق في المشنقة ويبقى معلقاً أمام أنظار أهله وأبنائه إلى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية ألسن معقود طرف كل لسان منها بقطعةٍ من الرصاص ومن حول المشانق والمجالد وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تُشوى بالكرابيج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة في المشانق، ومستشار الداخلية الإنجليزي واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذي أبدعته انجلترا في مطلع القرن العشرين ما أشدها وحشية وما أتعسها حضارة.

الكاتب الأيرلندي الشهير جورج برنارد شو لم يجد في مقدمة إحدى مسرحياته سوى السخرية من عدل سلطات الاحتلال، التي أجهدت نفسها بحثًا عن بروجرام تشغل به المتفرجين على حفل الإعدام وتحول بينهم وبين الملل خلال نصف الساعة الذي كان مفروضاً أن يظل فيه جسد المشنوق معلقاً للتأكد من وفاته، ولإتاحة وقت كاف لأسرته كي تشاهده وهو يدور حول نفسه وقد حلَّت المحكمة هذه المشكلة فقضت على ثمانية من المتهمين بالجلد؛ لتتيح لفرقة التنفيذ ملء فراغ البروجرام بجلد اثنين بين كل مشنوقين، حتى يكتمل طابع الاحتفال والاستعراض لعدل المحتلين وعلق جورج برنارد شو قائلاً: إذا كانت إمبراطوريتها تعني حكم العالم كما جرى حكم دنشواي في عام ١٩٠٦ وأخشى أن هذا هو ما تعنيه الإمبراطورية بالنسبة إلى الجزء الرئيسي من الطبقات الأرستقراطية العسكرية والطبقة الثرية ذات العصبية القومية لدينا فإنه لن يكون هناك أي واجب سياسي مقدس، وأكثر إلحاحاً على وجه الأرض من تقويض هذه الإمبراطورية، وإلحاق الهزيمة بها، وقمعها.

وحينما وقعت حادثة دنشواي، كان الزعيم الوطني مصطفى كامل يعالج من المرض في باريس، فقطع رحلة علاجه وسافر إلى لندن وكتب مجموعة من المقالات العنيفة ضد الاحتلال والتقى هناك بكامبل باترمان رئيس الوزراء البريطاني الذي عرض عليه تشكيل الوزارة في مصر، لكنه رفض ونشر مقاله الشهير إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن في صحيفة لو فيجارو الفرنسية دفاعاً عن القضية المصرية والتنديد بوحشية الإنجليز في دنشواي.

يقول مصطفى كامل في مقاله الذي حمل فيه على اللورد كرومر في مصر وأوروبا: .. نصبت المشانق ووضعت آلات الجلد والتعذيب في وسط دائرةٍ مساحتها ٢٠٠٠ متر مربع وأحاطت عساكر الدراجون الإنجليزية بالمحكوم عليهم والتفت الخيالة المصرية حول الإنجليز وتولى المستر ميتشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ! وقد تقدم إليهم ابن أول المحكوم عليهم بالشنق، سائلاً مقابلة والده لأخذ وصاياه الأخيرة فرفضوا قبول الرجاء الذي هو أعز ما يرجوه الإنسان ويحتمه الشرع والعدل فشنق رجل، ولبث أعضاء عائلته وأقاربه وهم على بُعدٍ يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب وجلد اثنان أمام الجثة وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات واستمر ساعة من الزمن منظر وحشي مهيج.

ويتابع مصطفى كامل في تقريره قائلاً: جئت أسأل الذين يجاهرون في كل آن، ذاكرين الإنسانية، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط، إذا حدثت فظائع في بلاد أخرى دون فظيعة دنشواي ألف مرة أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع مثل حادثة دنشواي يكفي وحده أن يسقط إلى الأبد المدنية الأوروبية في أعين العالم كافة. جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها في مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاماً، إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية، بل وأكثر من همجية.

وانتقل الأمر إلى مجلس العموم في انجلترا وتداولته الصحافة في فرنسا، حتى أطيح اللورد كرومر الذي استقال في ٤ مارس ١٩٠٧ واضطرت انجلترا إلى العفو عن المحكوم عليهم في دنشواي أو من بقي منهم حياً في ٨ يناير ١٩٠٨ بفضل مصطفى كامل وجهوده الكبيرة.

أما وصف جلاد دنشواي فقد كان صاحبه الشيخ عبد العزيز جاويش، الذي زعم الهلباوي أن هجومه عليه ليس سوى لخصومة بينهما وقضية تعود إلى مارس ١٩٠٦ تسبب فيها الهلباوي في إدانة أخوة الشيخ جاويش لمصلحة الكونت زيزينيا، وسط سجال على صفحات المؤيد واللواء، علماً بأن الشيخ عبد العزيز جاويش لم يهاجمه وحده وإنما قال في حق الثلاثة الهلباوي وبطرس غالي وأحمد فتحي زغلول إنه أصبح يشق علينا وجودهم على سطح الأرض ورؤيتهم على الأبصار وصوتهم على المسامع وذكرهم على الألسن وذكراهم في الصدور وفي هذا المقال الذي جاء بعد ثلاث سنوات على أحداث دنشواي، كتب عبد العزيز جاويش تحت عنوان في ذكرى دنشواي متهماً الهلباوي علناً بالعمالة للاحتلال وتقديم أهالي دنشواي قرابين إلى هيكل الاحتلال، الذي هو معبد الخائنين، وقرة أعين المارقين ومضى يقول إن الهلباوي قدم الضحايا إلى الهيكل ببراهين يعلم أن حظها من الصحة كحظه من الوطنية، وقربها من الحق كقرب موقفه من العواطف البشرية لكنها أموال استهوته، ومناصب استغوته، وعظمة للاحتلال استرغبته.

وهناك من يؤكد أن صاحب براءة هذا الوصف هو الشاعر حافظ إبراهيم حينما هجا إبراهيم الهلباوي لموقفه في دنشواي وقد عاش الهلباوي ٣٤ عاماً بعد تلك المأساة، ذاق أثناءها الذل والهوان من المصريين الذين لم ينسوا له دوره في تلك المحاكمة، بالرغم من محاولته التكفير عن ذلك، وحورب حرباً شديدة من الناس وخصومه ، وطارده لقب جلاد دنشواي في كل مكان.

يقول الأديب يحيى حقي:حضرتُه أي الهلباوي يخطب في سرادق ضخم ازدحم فيه أنصار حزب الأحرار الدستوريين من أجل تخليص البلاد من يد المحتلين، وقوبل خطابه بالهتاف والتصفيق، وامتلأ الرجل ثقة وزهواً وظن أن الدنيا قد صالحته، ولكنه لم يكد يفرغ من خطابه حتى ارتفع صوت في آخر السرادق يهتف يسقط جلاد دنشواي.

ومن الطريف أن الهلباوي انتدب نفسه فيما بعد عن إبراهيم الورداني، الذي اغتال بطرس باشا غالي، رئيس محكمة دنشواي، ربما كمحاولة يائسة للتكفير عما جنى سلفاً وفي أثناء محاكمة الورداني، قدم الهلباوي مذكرات تستحق التوقف عندها فهو يقول في إحدى مذكراته أمام المحكمة: لقد كانت دنشواي إحدى الفواجع التي رزئت بها مصر من عهد الاحتلال البريطاني كانت محكمة بلا قانون، بلا نصوص، تصدر ما تراه مناسباً من العقوبات، ولها أن تحكم أقسى الأحكام حتى الإعدام على من يرتكب أهون اعتداء على جندي بريطاني.

بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ يقول: لقد كان الحكم في قضية دنشواي بإجماع المصريين حكماً قاسياً لا يستحقه المتهمون، وكان تنفيذه فوق ذلك أكثر استحقاقاً للسخط لا فائدة في القول بأن جميع المصريين الذين شاركوا في هذه المحكمة قد كرههم مواطنوهم واحتقروهم ولربما استطاع أحد المدافعين في القضية الحالية أن يؤكد ذلك أكثر من غيره، لكنا لسنا هنا في مقام التوجع ولا الدفاع عن أنفسنا. لقد جئنا إلى هذه القاعة للدفاع عن الورداني.

والأكيد أن الهلباوي قدم نفسه في السنوات التي أعقبت محكمة دنشواي كمحامٍ بارع في عدد من القضايا الوطنية، وهو ما جعل الوطنيين المصريين يطلبون منه الدفاع عنهم في قضية التظاهر ضد قانون المطبوعات، وفي قضايا أخرى عدة لبراعته المهنية في المحاماة، ولكن حكم الشعوب يصعب أن يتغير.

ويذكر لنا التاريخ أن واحداً من أهم أحداث عام ١٩١٣ هو ما حدث في ٩ ديسمبر من ذلك العام، حيث استكملت نقابة المحامين وجودها القانوني هذه السنة، وكان اتجاه المحامين هو اختيار عبد العزيز فهمي لمنصب رئيس النقابة ، ولم يكد الدكتور هيكل يفاتح عبد العزيز فهمي في أحقية إبراهيم الهلباوي بهذا المنصب حتى بادر على الفور بالموافقة قائلاً: أستاذنا وشيخنا، وتحول فهمي من المرشح المختار إلى داعية لانتخاب الهلباوي الذي صار أول نقيب للمحامين في مصر.

وكان إبراهيم الهلباوي بك قد كتب مذكراته، التي قدمها د. عبد العظيم رمضان الذي يقول في تقديمه لها: إنه من المحقق أن الهلباوي وطني مصري كفَّر عن سيئة دنشواي بمئات من الحسنات، وقد تعامل معه الوطنيون المصريون على هذا الأساس، فلم يستبعدوه من الصف الوطني وطلبوا منه مثلاً الدفاع عنهم في قضية التظاهر ضد قانون المطبوعات المقيد لحرية الصحافة كما حرص إبراهيم الورداني، قاتل بطرس غالي، على أن يطلب من الهلباوي الدفاع عنه رغم معرفة دوره في محكمة دنشواي.

الباب السادس

النـهاية

وفاة الزعيم مصطفى كامل:

ظل حلم إنشاء حزب مصري لمواجهة الاحتلال حلم يداعب خيال الزعيم مصطفى كامل والذي بدأ منذ بدايته النضال ضد الاحتلال الإنجليزي.

في ١٩٠٧ داهم المرض بشكل عنيف مصطفى كامل، فسافر إلى أوروبا للعلاج ومن هناك يتحدث عن الاحتلال الإنجليزي لمصر، غير مكترث بالمرض ثم عاد في أكتوبر من نفس العام، فاستقبله الشعب استقبال حافلوخطب خطبته الشهيرة في زيزينيا بالإسكندرية واستمرت ٤ ساعات.

وكأن مصطفى كامل كان يشعر بقرب أجله فطالب زملائة بالإسراع فى تأسيس الحزب الوطني، فانعقدت الجمعية العمومية لأول مرة في فناء دار اللواء ونزل الزعيم عن سريره علي الرغم من مرضه وضعفه وما إن وقف علي المنبر حتي تدفق كالسيل العرم ينحدر من فوق جبل، قائلًا:

يذكر الكاتب الصحفي مصطفى أمين تفاصيل ما قاله الزعيم مصطفى كامل لرفاقه : "إننا لسنا حزبًا سياسيا فقط، نحن قبل كل شيء حزب حياة للأمة، إنكم أنتم قوتي وساعدي بصفتكم من خير أمة أوقفت لخدمتها حياتي وقواي، وعقلي وقلبي وقلمي ولساني وصحتي وبعد هذه الخطبة تألف الحزب الوطني، وكانت خطبة الوداع التي اعتكف بعدها في سريره.

لم يمر سوى ١٠٠ يوم على إنشاء الحزب حتى داهم المرض مصطفى كامل فلازم الفراش وكانت أخر كلماته : كنت أتمني أن أعيش لمصر حتي أراها حرة مستقلة.

ويضيف مصطفى أمين : في يوم السبت ٨ فبراير قبل وفاته بيومين زاره الخديو عباس حلمي الثاني، فاستند الزعيم لظهره علي السرير، إذ صار لا يقوي علي الوقوف وجلس الخديو وأخذ يهون عليه فقال له الزعيم: لي رجاء يا أفندينا وأنا أشعر بقرب الأجل أن تعطف علي الحزب الوطني فإنه أمل مصر فطمأنه الخديو، وفي المساء زاره أمير الشعراء أحمد شوقي وحين دخل إليه طبيبه صادق رمضان وفحصه سأله الزعيم: هل هناك أمل؟.

توفى الزعيم فى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨م عن عمر يناهز ٣٤ عاما بعدما ملأ الدنيا وشغل الناس عبر هذه الرحلة القصيرة.

أهم المصادر والمراجع

١. دنشواي - محمد جمال الدين المسدي.

٢. حكايات من دفتر الوطن - صلاح عيسى.

٣. ديوان حافظ إبراهيم - حافظ إبراهيم.

٤. اغتيال بطرس باشا غالي في الذكرى المئوية الأولى - د. خالد عزب وصفاء خليفة.

٥. الجريمة في مانشيتات الصحف - كريمة حسن.

٦. مجموعة من الصحف منها(جريدة الأهرام - جريدة المقطم- جريدة اللواء).

٧. تراجم مصرية وغربية - د. محمد حسين هيكل.

٨. الناس في بلادي - صلاح عبد الصبور.

٩. مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية وفاضح فظائع الاحتلال البريطاني - خالد حجاج .

١٠. نجوم المحاماة في مصر وأوروبا - عبد الحليم الجندي .

١١. جلادون مصريون في المذبحة - ماهر حسن.

١٢. إبراهيم الهلباوي جلّاد دنشواي وابن المحمودية – ماهر حسن.

١٣. مذكرات إبراهيم الهلباوي: تاريخ حياته، إبراهيم الهلباوي بك - تقديم د. عبد العظيم رمضان.
١٤. نجوم في حياتنا - عبد الحميد يونس.
١٥. مصطفي كامل في محكمة التاريخ د. عبدالعظيم رمضان.
١٦. مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - عبد الرحمن الرافعى .
١٧. أوراق مصطفى كامل- الخطب/ إشراف وتحقيق يواقيم رزق مرقص.
١٨. مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعاً - لعلى فهمى كامل.
١٩. مصطفى كامل- حياته وكفاحه -أحمد رشاد.
٢٠. مصطفى كامل- فتحى رضوان.
٢١. مصطفى كامل فى سلسلة أبطال العرب - دار العودة بيروت.
٢٢. الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة- أنيس المقدسى .

الفهرس